بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل من تقلب الزمان عبرة لمن يعتبر، والصلاة والسلام على من قال الحكمة ضالة المؤمن فليجدها حيث وجدت . . .

ما أن سطرت آخر سطر، وطويت آخر صفحة من كتاب « استانبول؛ عبق التاريخ، وروعة الحضارة » ودفعت به إلى الناشر حتى قادنى الحديث عن المقدمة التى لم تكتب بعد . .

تنازعتنى الأفكار، وتجاذبتنى التيارات، والأهواء. فأخذت أقلب فى جنبات الذاكرة؛ عما أكتب فى المقدمة . . ؟

ـ هل أكتب عن وصولى إلى مدينة استانبول فى الثالث والعشرين من رمضان سنة ١٣٨٧هـ الأول من يناير سنة ١٩٦٧ م وعن الحياة الجديدة التى عشتها فى استانبول . . . أم أكتب عن المعاناة التى عشتها عقب نكسه يوليو سنة ١٩٦٧م التى قسمت ظهورنا، ولكنها لم تهزمنا ؟ ـ هل أكتب عن النشاط المحموم، والصداقات المتعددة التى كنت أسعى من وراءهما إلى شرح قضية الوطن الجريح، وقلب الريفى الكسير وهو الوحيد فى عاصمة الخلافة . . ؟

ـ هل أكتب عن غليان القومية، والأممية، والناصرية، والتنحى ، واليسار، واليمين، وعن التيارات التى كانت تتلاطم فى شوارع استانبول الصاخبة تأييداً لمصر ؟ ـ هل أكتب عن توافد زملاء الدراسة من ابراهيم الدسوقى شتا، والسباعى محمد السباعى، ومحمد نور عبد المنعم، وحسين عليوه، وفتحى النكلاوى، وادريس نصر، ومساجلات الفكر، وجولات اللهو، ورحلات التنزه عبر متنزهاتها وآثارها . . ؟

ـ هل أكتب عن النشاط الفنى مع السينمائيين المصريين واللبنانيين والأتراك؛ من فريد شوقى الممثل ونيازى مصطفى المخرج وسعد شنب المنتج، والسينارست عبد الحى أديب، وعن خُلقى سنر المنتج ، وعاطف يلماز، ومتين أركصان، ومحمد آرسلان المخرجون، وعارف اونال المنتج، ويوجال جقمقلى المنتج والمخرج، وآتيلا كوك بوريه المخرج، وچتين طونجه المصور . .وآمال صابين الممثلة . . ؟ ـ هل أكتب عن النشاط الجامعى، وعلاقاتى المتعددة مع أساتذتى الأفاضل وزملاء الدراسة من العالم

العربى كله ومن ايران وباكستان، ورحلات الخارج إلى اليونان وبلغاريا، ويوغوسلافيا، والمجر، والنمسا، وايطاليا وفرنسا وسويسرا، وآلمانيا وانجلترا، وبلجيكا، وسوريا، والعراق، والكويت بحثاً عن العلم، والمعرفة، واكتساباً للخبرة . . ؟

ـ هل أكتب عن عواطف الجندى البسيط، وأنا فى أعماق السجن الحربى، أو عن النقاش الفكرى العميق الذى يستهدف استكشاف الأعماق فى السجن السياسى، أم حواديت، وآحاديث مهربى المخدرات، ومروجى الدعارة، والتهريب فى « التخشيبة » قبل الترحيل من استانبول عقب اغتيال فريق الكرة الاسرائيلى فى الدورة الأولمبية التى نظمتها مدينة ميونيخ سنة ١٩٧٣م ؟ ـ هل أكتب عن المشاعر المتضاربة، والإنفعالات المتباينة عقب تلقى خبر وفاة عبد الناصر، ونحن على نقاط الحدود بين يوغوسلافيا والمجر، ومظاهر الحزن والآسى التى أصابت المواطن العادى فى المجر والنمسا والمانيا خلال أسبوع الحداد على موته رغم ما كان يكيله للغرب . . فالرجل قد عمل لبلده وأمته، وبذل الجهد والعرق، والحياة بشرف دون أن تكون هناك بقعة تلوث شرفه العسكرى، أو السياسى . ؟ عمل بشرف . . ومات بشرف . .

ـ هل أكتب عن المعاناة النفسية التى انتابتنى عقب الإبعاد السياسى وكنت قاب قوسين أو أدنى من مناقشة رسالة الدكتوراه . . ؟ أم عن الجهد الخرافى الذى بذلته لأقف من جديد شامخاً، مرفوع الرأس، فلم أرتكب ما أخجل منه، بل ما يوجب على الجامعة أن تُقيم تمثالاً لمن قام بمثل ما كنت أقوم به وأنا فى استانبول حيال بلدى على حد قول الأديب، والناقد الكبير الدكتور / عبد القادر القط، عميد الكلية آنذاك . . ؟

تركت القلم، وطويت الأوراق، وخلدت إلى النوم . . وماهى إلا سويعات قلائل حتى استيقظت، وقد نحيت كل هذه الأفكار جانباً . . كيف أجعل همومى تطغى على هموم الأمة . . ؟ فتشت فى الذاكرة فإذا بى أجد أن :

ـ العرب قد أدخلوا الإسلام إلى غرب أوروبا على يد موسى بن نصير، وطارق بن زياد . وأقاموا فى شبه جزيرة أيبيريا أى فى الأندلس حضارة شامخة، مازالت آطلالها باقية . . أى أن العرب قد عبروا بالإسلام إلى غرب اوروبا من مضيق مازال يُسمى مضيق جبل طارق .

ـ الترك العثمانيون قد أدخلوا الإسلام إلى شمال شرق اوروبا بعبور سليمان ابن اورخان من غالبيولى إلى الروميلى أى إلى بلاد الروم . . واستمر الكفاح والنضال حتى انتقلت العاصمة من بورصة إلى أدرنة، ومنها إلى استانبول لكى تُصبح حاضرة العالم الإسلامى، وتندرس بيزنطة الشرقية بين طيات التاريخ .

ـ فى الغرب حيكت المؤامرات، وتوحدت الصفوف، وأقيمت الأحلاف وبدأ الضغط على العرب واليهود للخروج من الأندلس. .واستقبل العالم العربى آعرابه، وفُتحت الصدور، والمدن الإسلامية المتسامحة آحضانها إلى أصحاب الديانة اليهودية، ليلجئوا إليها، ويلوذوا بجمالها. . وينعموا بخيراتها . .

ـ فى الشمال الشرقى وصلت الرماح العثمانية إلى أسوار فينا، وأوشكت أن تخترق سهام ال « قيزيل ألما » جدران روما، وتعلو فوق أسوارها. .ولكن حِيكت مؤامرة روكسلانة المدسوسة إلى القصر السلطانى، بمهارة فائقة مع الصدر الأعظم أحد أقطاب الدوشيرمه، فيقتل السلطان الأب، فلذة كبده ولى العهد بفعل الدسيسة، ويتجرع كئوس الغم عندما اكتشف الخديعة .وانسحب السلطان، وتراجعت السهام .

ـ خلت الأندلس من معالم الحضارة الأسلامية، إلا من بعض الأطلال، ومحاكم التفتيش تبحث بين الصدور والجدران عن كل ما يتصل باليهودية والإسلام. .

ـ بدأ التقهقر، والتراجع فى البلقان، ولم تعد الأوامر؛ « إلى الشمال تقدم » بل « إلى الخلف دور » . .

ـ يكتب الشاعر، والأديب، والمفكر عبد الحميد ضياء الدين باشا (ضيا باشا) فى منتصف القرن التاسع عشر كتابه الضخم (ستة مجلدات) عن تاريخ العرب فى الاندلس. ويخص المجلد السادس بمعالم الحضارة الإسلامية وبصماتها فى الأندلس. بعد أن حلل عوامل الدفع، والإرتقاء، وأسباب التدنى والتقهقر. .وكأنه أراد أن يحذر آل بيته، وبنى قومه، وقادة امته، ويضرب لهم المثل بما حدث فى الأندلس محذراً. .

ـ تفرغ الغرب الصليبى، والماسونية، والصهيونية العالمية إلى الشمال الشرقى من أوروبا. .وقاد الصليبيون الجدد المظاهرات فى مدن أوروبا، وشوارع لندن يطالبون بضرورة اخراج الترك من كل آوروبا. .لابد من تطهيرها من . .

ـ مرة آخرى حيكت المؤامرات، وتعاون أحفاد روكسلانه من الماسونيين والدونمة، والصهاينة مع حملة الصليب الكاذب. .وبدأ الضغط. .وأعادوا إلى الذاكرة جرائم مصاص الدماء « دراكوله » بما هو أشنع منها. .وما القتل الجماعى. .والمقابر الجماعية، وقتل الأطفال، واغتصاب الفتيات، وتلقيح النسوة بأجنة الكلاب ببعيد عن الذاكرة. .

ـ اشتد الضغط، وعاست الخيانة، واستشهد الأبرياء فى « سلسترا » وخرجت على شواطىء البحر الأسود الزجاجات بتقارير الجاسوسية الماسونية، وخرجت الجيوش العثمانية من صوفيا،

وافتربت الحدود والأسلاك الشائكة من استانبول . .وتزايد الضغط، والدفع، والشحن، وتعاونت المؤامرة مع الخيانة وتدثرت بالخديعة . .وخرجت الجيوش العثمانية من حاضرة ملكها من استانبول . . واتجهت الرماح لتقتل الأبناء . .وأخوة العرق والدين . .وتعاون الغافل مع آحفاد روكسلانة، ومعبئوا زجاجات الخيانة . .

ـ يا إلهى . .شريط التداعيات . .وارهاصات الخوف أطارت النوم من عينى فماذا أفعل . . ؟ فهل تحت وطئة الغفلة، وبتأثير الخديعة، تندثر معالم حضارة اسلامية انسانية من كل شمال شرق القارة الحاقدة . .نحن لم نهدم معبداً، أو كنيسة، لم نسفك دماً باسم الدين . .لم نطمع فى الثروات، لم نحقد . .فبلادنا مهبط الأديان جميعاً، وحتى الديانات الوضعية أو لنقل الفلسفات التى تدعوا إلى خير الإنسان والأنسانية كلها خرجت من الشرق الدافىء، المتسامح، المحب الحنون . .فالشرق الذى إذا ما أتجه إلى الشمال فإنما يتجه من أجل السمو وشمول العالم برحمتُه وتسامحه، وسموه، فمحراب جوامعه نصف دائرة تحتوى العالم بالهدوء والرضا والسكينة إذا ما دخلها للصلاة، ومآذن الجوامع، والمساجد السامقة تنطلق من الأرض إلى السماء، تسمو بالانسان من الدنو، والدونية إلى الرفعة، والإرتقاء . .لكى يعلو عن الخطايا . .ويتسامح فى الإنسانية . .

ـ قفزت إلى الذاكرة كلمات البطل طارق بن زياد فى المسرحية التى تحمل اسمه، والتى ألفها الشاعر التركى الأعظم عبد الحق حامد فى النصف الثانى من القرن ١٩ وهو يتأمل قاعة التيجان ويتساءل أين أصحابها . . ؟ وكلمات السلطان محمد الفاتح وهو يطوف بآرجاء قصر قسطنطين، ويرى معالم الإهمال . .وهروب ساكنيه أثناء الحصار، فيتمثل ببيت من الشعر الفارسى أمام كل المختالين بساعة النصر، والمزهووين بتملكهم لتلك الصالونات الفاخرة، وعلى مسمع من كل أركان الدولة، وقادة الجيش المنتصر، حيث قال :

(برده دارى ميكند در قصر قيصر عنكبوت　　بوم نوبت ميزند برَقية آفراسياب)

« لقد نسج العنكبوت بيته فى قصر القيصر　　ونعقت البوم نوبتها على قبة آفراسياب »

ـ استاذى ومحك اطروحتى للدكتوراه « ضيا باشا » هاأنذا أتمثل بما قمت أنت به، فقد أرخت لشركاء العقيدة لتحذر أبناء جنسك، وهاأنذا أكتب عن عبق التاريخ، وروعة حضارة أجدادك، لأضم صوتى إلى صوتك وصوت كل المحبين لأمتهم . .وأحذر بأن التخطيط قائم . .والمؤامرة مستمرة، وأحفاد روكسلانه يسعون بكل مقومات الغش ، والخداع، والدسيسة لكى تتحول رماح أحفاد الفاتح، وسليم الأول، وسليمان القانونى إلى الجنوب لتمزق صدور أخوة الدم، وشركاء العقيدة . . بدلاً من أن تقف، شامخة، متحدية، يقظة لكى تظل استانبول هى استانبول، ولا تعود وتُصبح بين عشية وضحاها على ما كانت عليه سنة ٨٥٧ هـ = ١٤٥٣م .

ـ كتبت فى « عبق التاريخ » عن القسطنطينية، ومحاولات الفتح الإسلامية قبل الفتح المبين، تناولت صدى الفتح ورسائل البشرى إلى العالم الإسلامى، والصدى المعاكس فى دول العالم المعروفة آنذاك.

ـ تتبعت خطى أبناء، وأحفاد الفاتح فى العاصمة الجديدة، وما توالى عليها من أحداث، ليس تاريخاً بمفهوم التاريخ، ولكن محاولة لاستنشاق العبق الصادر عن التاريخ، ووصلت بهذه الخطى حتى تخلى الحفدة الجدد عن استانبول كعاصمة، ولكنها احتفظت بعبقها الفواح حتى اليوم.

ـ وفى « روعة الحضارة » وقفت وقفة المتأمل أمام التراث الحضارى فى العاصمة الجديدة؛ منذ الفاتح حتى أواخر القرن التاسع عشر، رصدت معالم الحضارة المعمارية، والمؤسسات العلمية، والتعليمية وحركة الفكر والأدب والثقافة فى العاصمة.

ـ لا أدعى أننى أوفيت استانبول حقها، ولكنى أدعى أن هذه هى المحاولة الأولى باللغة العربية. وكل ما آتمناه أن تتجه إليها الأنظار ليس للسياحة، واللهو فقط بل للحفاظ عليها، والزود عنها، والعناية بها، والعض عليها بالنواجذ لكى تظل دار السعادة.. ومدينة آلاف المساجد، والكنائس، والمعابد المتحابة.. المتعانقة.. ولكى تحتضن الجميع فى تسامح الأديان.. وسمو الجنس البشرى الحق..

وعلى الله قصد السبيل،

القاهرة فى غرة رجب سنة ١٤١٩ هـ

٢١ اكتوبر (تشرين اول) سنة ١٩٩٨ م

أ. د/ الصفصافى احمد المرسى القطورى